

## مقالة

# علم الكلام: حماية الدين أم تعميق الشقاق؟

الشيخ حسين الخشن

! الأبحاث و المقالات المنشورة لا تعبر عن رأي «الآفاق» بالضرورة، بل تعبر عن رأي أصحابها

إلى اجتناب هذا العلم وعذّه في جملة العلوم المنهي عنها متشبيهاً ببعض الروايات الواردة في هذا المجال، كحديث أبي بصير قال: قال أبو عبد الله: -يهلك أصحاب الكلام وينجو المسلمون إن المسلمين هم النجباء-. وفي حديث آخر عن محمد بن عيسى قال: قرأت في كتاب علي بن هلال عن الرجل يعني أبا الحسن<sup>(ع)</sup> أنه روي عن أبيك<sup>(ع)</sup>: -أنهم نهوا عن الكلام في الدين، فتأول المتكلمون بأنه إنما نهى من لا يحسن أن يتكلم فيه، فأما من يحسن أن يتكلم فلم ينهه، فهل ذلك كما تأولوا أم لا؟ فكتب<sup>(ع)</sup>: -المحسن وغير المحسن لا يتكلم فيه، فإن إثمه أكبر من نفعه-.

إلى غير ذلك من الروايات التي هي - كما يستفاد من سياقها والقرائن المحيطة بها - بصدد النهي عن الجدل والخصومة في الدين لا بصدد النهي عن دراسة علم يهدف إلى تقديم تصور صحيح عن العقائد الحقّة والدفاع عن المفاهيم والعقائد الدينية اعتماداً على العقل والوحي، ولذا ورد في هذه الروايات وغيرها تعبير -الخصومة في الدين- كما في الحديث عن أبي الحسن<sup>(ع)</sup> مخاطباً بعض أصحابه وهو علي بن يقطين: مَرَّ أصحابك أن يكفوا ألسنتهم ويدعوا الخصومة في الدين ويجتهدوا في عبادة الله عز وجل-، وعن أبي عبد الله: -لا يخاصم إلا شاك أو من لا ورع له-.

المصدر: موقع سماحة الشيخ حسين الخشن الإلكتروني



مصادر العامة لغرض نصره المذهب وذلك بالنظر إلى أن هذه الكتب نقلت روايات متعلقة بأئمة الهدى سلام الله عليهم بطرق عامية، وهذا الأمر كان مهماً في حينه لنصرة الكتب ولقلة النسخ ولكثرة ما يطرأ على الكتب من تلف وتضييع. بطبيعة الحال لا أقلل من جهد السيد الجليل، وإنما كلامي منصب على طبيعة ما نقله في كتبه وقيّمته الروائية وفق منهج أهل الهدى.

المصدر: مكتب سماحة الشيخ جلال الدين الصغير

بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة- (الكافي)، فقد استند البعض إلى هذا الحديث لاثبات شرعية الكذب والبهتان في مواجهة أهل البدع والباطل، ولكن تفسير قوله<sup>(ع)</sup>: باهتوهم- بمعنى البهتان غير سديد، والأقرب في معناه ما استظهره العلامة المجلسي<sup>(ع)</sup> من أنه مأخوذ من المباهطة بمعنى مواجهتهم بالحجج الدامغة بما يجعلهم متحيرين لا يهتدون سبيلاً ولا يحIRON جواباً، كما في قوله تعالى: (فبهت الذي كفر)(البقرة:285)، ولذا قال الشهيد الثاني<sup>(ع)</sup>: يصح مواجهتهم بما يكون نسبته إليهم حقاً، لا بالكذب-، هذا بالإضافة إلى الشواهد الكثيرة التي تؤكد على ضرورة مواجهة الباطل بالحق وليس بإباطل مثله سواء في المضمون أو الأسلوب، فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق<sup>(ع)</sup> وهو يقيم مناظرة جرت بين جماعة من أصحابه ورجلاً شامياً حيث قال لأحد أصحابه: إنك تمزج الحق مع الباطل وقليل الحق يكفي عن كثير الباطل-، وعن أمير المؤمنين<sup>(ع)</sup>: قليل الحق يدفع كثير الباطل كما أن القليل من النار يحرق كثير الحطب-.

■ **ذم الكلام والخصومات:** وكردة فعل - فيما يبدو - على ذهنية الجدل وأساليب المخاصمة والمماحكة الكلامية ذهب بعض علماء المسلمين إلى ذم علم الكلام والتحذير منه واعتباره مبعداً عن الله سبحانه، كما نلاحظ في وصية السيد ابن طاووس لابنه حيث نصحه بالابتعاد عن دراسة علم الكلام، وهكذا ذهب بعض الأخياريين - كالحر العاملي -



تعود إلى ما قبل ألف عام ولم يعد أحد يتبناها من متأخري علماء السنة، كما هو الحال في عقيدة الجبر والتشبيه وما إلى ذلك متجاوزاً كل التطور الذي طرأ على هذه الآراء والعقائد، وبلغت الذهنية الجدلية حدّاً توسلت معه شتى الأساليب النظيفّة وغير النظيفّة بغية الوصول إلى أهدافها وهي إسقاط الآخر وإسكاته، وتمّ اعتماد الحقل الكلامي إلى يومنا هذا، حيث تراهم يحاكمون الخصم على الشاذ من آراء أسلافه وكأنها آراء المذهب برمته، فالكاظم أو العالم السنّي يحاكم الشيعة ويدينهم على آراء نادرة أو شاذة لبعض علمائهم، كالرأي الشاذ حول نقیصة القرآن الكريم، متجاوزاً الإجماع السابق واللاحق لعلماء الشيعة في رفض هذا الرأي وتسخيفه، وفي المقابل فإنّ الكاتب أو العالم الشيعي لا يزال يحاكم السنة على آراء

والشيعة... هو جهد معطل ومعيق لنمو الأمة ورشدّها. ■ **الذهنية الجدلية:** إن الامعان في الشقاق والخصومة ولّد لدى المتكلمين وأنباعهم ذهنية جدلية لا تهدف إلى بلوغ الحقيقة بقدر ما ترمي إلى إفحام الخصوم وتسجيل النقاط عليهم، ولا تزال هذه الذهنية متحكمة بعموم المؤلفين في الحقل الكلامي إلى يومنا هذا، حيث تراهم يحاكمون الخصم على الشاذ من آراء أسلافه وكأنها آراء المذهب برمته، فالكاظم أو العالم السنّي يحاكم الشيعة ويدينهم على آراء نادرة أو شاذة لبعض علمائهم، كالرأي الشاذ حول نقیصة القرآن الكريم، متجاوزاً الإجماع السابق واللاحق لعلماء الشيعة في رفض هذا الرأي وتسخيفه، وفي المقابل فإنّ الكاتب أو العالم الشيعي لا يزال يحاكم السنة على آراء

إلى النتائج السلبية لمقولة التكفير على علم الكلام نفسه، مع صرف النظر عن نتائجها الكارثية على وحدة الأمة وتماسكها ومنعتها الداخلية والخارجية، واكتفي بالقول: إن بحر الدماء الذي تغرق فيه الأمة في معاركها الداخلية العبيّة ليس سوى ثمرة دامية من ثمار مقولة التكفير.

■ **جهد مستنزف:** لقد أدخلتنا ثقافة التكفير في نفق من الجهود الكلامية العبيّة، والمتأمل في المصنفات الكلامية يلحظ أن ما كتبه علماء المسلمين في الجدل المذهبي والرد على بعضهم البعض أكثر بكثير مما كتبه في الردّ على أهل الكتاب أو الملحدين أو غيرهم، ويمكن تلمس ذلك بوضوح في -مقالات الإسلاميين- و-الإبانة- لأبي الحسن الأشعري، و-الشافي- للسيد المرتضى، و-المغني- لعبد الجبار المعتزلي، و-الانتصار- لابن القصار، و-المواقف- لسعد الدين التفتازاني، وغير ذلك من المصادر والمصنفات الكلامية.

صحيح أن الصراعات الكلامية في الفضاء الإسلامي عبّرت عن حرية فكرية متميزة وخلقت حراكاً فكرياً غير مسبوق كان له دوره في إثراء علم الكلام، بيد أنها تجاوزت الحد المألوف وأفرطت في الخصومة بما حوّل علم الكلام - في الكثير من مباحثه - إلى مشاغل ذهنية، الأمر الذي أصابه بالجمود والشلل، وغدا علماً للخلاف لا للعلم، ويمكن القول: إن الجهد المستنزف في الخلاف العقدي المستمر إلى الآن والممعن في استرجاع الماضي وتكرار خلافات الاشاعرة والمعتزلة والسنة

إن المتأمل في تاريخ علم الكلام لا يخالجه أدنى شك أن هذا العلم - وبحدل أن يشكل ركيزة أساسية وأرضية مشتركة للجمع والتوحيد - ساهم بوضعيته التاريخية في ثلم وحدة الأمة وتقطيع أوصالها وتحويل خلافاتها المذهبية إلى تكتلات عصبوية وحزبية لعبت دوراً رئيسياً في إشعال نار الفتن المذهبية وتغذية الصراعات الدموية في أكثر من مرحلة زمنية. ولم يكن ذلك بين الشيعة والسنة فحسب كما هو معروف وسطرت فصوله كتب التاريخ، بل بين أبناء المذهب الواحد، كصراعات الاشاعرة والمعتزلة أو الحنفية والحنابلة، يذكر التاريخ أن الحنابلة في جيلان كانوا إذا دخل عليهم حنفي قتلوه وجعلوا ماله فيئاً حكمهم في الكفار، ويذكر أن بعض بلاد ما وراء النهر من بلاد الحنفية كان فيه مسجد واحد للشافعية، وكان والي البلد يخرج كل يوم لصلاة الصبح فيرد ذلك المسجد فيقول: أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق؟!.

إن ما نقصده بالوضعية التاريخية لعلم الكلام التي لعبت هذا الدور التميزقي هو ابتناء هذا العلم على قاعدة التكفير والتضليل وعلى جملة مقولات شقاقية تمّ توظيفها بطريقة خاطئة، من قبيل مقولة (الفرقة الناجية) التي شغلت العقل الكلامي بالتفتيش عن الفوارق بين المسلمين بدل اشغاله في اكتشاف الجوامع، الأمر الذي أسهم في بناء نسق من التفكير العصبوي المتزمت كانت لمرته الطبيعية هي التكفير والتكفير المضاد. لن أدخل هنا في مناقشة حديث الفرقة الناجية فقد تعرضنا لذلك بالتفصيل في مقام آخر وإنما أريد التطرق

## علماء وأعلام

### الشيخ الطوسي<sup>(ع)</sup>



#### ■ حياته

ولد محمد بن الحسن بن علي بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي والمكنى بأبي جعفر في خراسان، شهر رمضان سنة 385 هـ قدم الطوسي العراق سنة 408 هـ في سن الثالثة والعشرين وتلمذ على يد الشيخ المفيد (المتوفي 413 هـ) مدة خمس سنوات وعلى يد ابن الغضائري (المتوفي 411 هـ) ثلاث سنوات وعند ابن الحاشر البرز، وابن أبي جيد، وابن الصلت والذي توفي بعد سنة 408 هـ. وشارك النجاشي (372 \_ 450 هـ) في بعض مشايخه. أدرك السيد المرتضي (المتوفي 436 هـ) ولم يدرك الشريف الرضي.

أسند إليه الخليفة العباسي القائم بأمر الله كرسى علم كلام بغداد وبذلك اجتمع حوله العلماء وتوجه إليه الطلاب وكان من بين تلامذته 300 من العلماء وظل محتفظاً بمنصبه إلى أن سقطت بغداد بيد الأتراك السلاجقة.

#### ■ المكانة العلمية

أسس الشيخ طريق الاجتهاد المطلق في الفقه وأصوله. وعندما تطلق كلمة الشيخ مجردة لدى العلماء فهو المقصود بها، وهو صاحب كتابين من الكتب الحديثية الأربعة هما «الاستبصار» و«التهذيب» ولم يجرء أحد بعده أن يخالف نظرياته إلى أن ظهر ابن ادريس الحلي فأخذ بنقدّها. وكان كتابه «النهاية» مادة للتدريس إلى أن ألف المحقق الحلي كتاب «شرائع الاسلام».

#### ■ من أساتذته

إن مشايخ الشيخ الطوسي وتلامذته كثيرون وقد ذكر الميرزا حسين النوري في مستدرک وسائل الشيعة (ج3، ص509) 37 شخصاً وأما الذين يروي عنهم غالباً فهم خمسة وهم: الشيخ أبو عبدالله أحمد بن عبدالواحد بن أحمد البرز، المعروف بابن الحاشر وابن عبدون، الشيخ أحمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الصلت الأهوازي، الشيخ أبو عبدالله الحسين بن عبدالله ابن الغضائري، الشيخ أبوالحسين علي بن أحمد بن محمد بن أبي جيد، أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان المشهور بالشيخ المفيد.

#### ■ من تلامذته

تجاوز عدد طلبة الشيخ الطوسي الذين بلغوا مرتبة الاجتهاد ثلاثمئة مجتهد من الشيعة، ومن السنة، أبرزهم: آدم بن يونس بن أبي المهاجر التسفي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن أحمد الخزازي النيشابوري، أبو طالب اسحاق بن محمد بن الحسن بن الحسين بن محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، أبو ابراهيم اسماعيل أخو اسحاق السالف الذكر، أبو الخير بركة بن محمد بن بركة السدي، أبو الصلاح تقي بن نجم الدين الحلي، شهر آشوب السروي المازندراني، جد الشيخ محمد بن علي مؤلف «معالم العلماء والمناقب» و ... .

#### ■ المؤلفات

يذكر أنّا برزك الطهراني في مقدمته علي كتاب النهاية للشيخ الطوسي مؤلفات الشيخ بالترتيب ويقول: «هذا ماوصل إلينا من أسماء مؤلفات شيخ الطائفة ومنه ما هو موجود وما هو مفقود ولعل هناك ما لم نوفق للثور عليه» ومن أهم كتبه الاستبصار وتهذيب الأحكام والتبيان في تفسير القرآن.

#### ■ وفاته

عاش الشيخ الطوسي اثنتي عشرة سنة في النجف وتوفي ليلة الاثنين 22 محرم سنة 460 هـ وغسله تلامذته الحسن بن مهدي السليقي، والحسن بن عبد الواحد العين زرابي، وأبوالحسن اللؤلؤي، ودفنوه في بيته ثم تحوّل البيت إلى مسجد بناء على وصيته وهو اليوم من أشهر مساجد النجف ويقع قرب الباب الشمالي لصحن الإمام علي<sup>(ع)</sup> والمعروف بباب الطوسي.

### المسألة ووجود

### -ما هو رأي سماحتكم في كتاب الملاحم

### والفتن لابن طاووس؟

### -هل يمكن الاعتماد على كتاب الملاحم

### والفتن باعتباره مصدراً موثقاً؟

#### ■.سماحة الشيخ جلال الدين الصغير

منهم، ونوّه في غير موضع من كتابه بأنه مجرد ناقل لأقطاب العلم عندنا، وهو جمال العارفين السيد علي بن موسى بن جعفر الملقب بابن طاووس أعلى الله مقامه، ويكفي للإشادة بمقامه العلمي أن نعرف بأنه أستاذ العلامة الحلي<sup>(ع)</sup> ومن سواه من أعلام عصره، غير أن الغالبية المطلقة لما حواه الكتاب وجّله الأعظم هو حديث العامة ومأخوذ

الجواب: الملاحم والفتن وإن كان مؤلفه هو أحد أقطاب العلم عندنا، وهو جمال العارفين السيد علي بن موسى بن جعفر الملقب بابن طاووس أعلى الله مقامه، ويكفي للإشادة بمقامه العلمي أن نعرف بأنه أستاذ العلامة الحلي<sup>(ع)</sup> ومن سواه من أعلام عصره، غير أن الغالبية المطلقة لما حواه الكتاب وجّله الأعظم هو حديث العامة ومأخوذ

فإننا قصدنا كشف ما أشار إليه، فإنّ المصنف نعيم بن حماد ما هو من رجال شيعة أهل بيت النبي<sup>(ص)</sup>. وكتب في مفتتح نقله عن كتاب الفتن للسليبي الحسائي ما نصه: ودرک ما تضمنته على الرواة، وأنا بريء من خطره، لأنني أحكي ما أجدّه بلفظه ومعناه.

كما أنّه كتب في آخر ما نقله عن كتاب الفتن لأبي يحيى زكريا البرزّاز النيسابوري ما نصّه: وهذا آخر ما علّقناه من الثلاث المجلدات في الفتن وما يتجدد من المحن والإحـن، فكل ما صدق فيها الخبر والعيان الأثر، فهو من آيات الله جلّ جلاله الباهرة ومعجزات رسول<sup>(ص)</sup> المتظاهرة، وتعظيماً لعترته الطاهرة، وزيادة في دلائل سعادة الدار الآخرة، وما

ظهر أن الخبر خلاف ما تضمنه معناه فيكون الدرك على من ابتدأ الغلط فيما رواه، إن كان تعقّد فعليه درک الاعتماد، وخشية خطر يوم المعاد لدى المطلع على أسرار العباد، وإن كان عن غير عمد منه فعسى الله جلّ جلاله أن يعفو عنه، فمن وقف على شيء مما ذكرنا، فليعلم أننا قصدنا كشف ما رأيناه، ولا درک علينا فيما علّقناه.

الكتاب في محتواه العام عبارة عن نقل روايات عامية غالبيتها العظمى متعلقة بالإمام المنتظر أرواحنا فداء، وقد ركّز السيد ابن طاووس على النقل من كتاب الفتن لنعيم بن حماد وهو من مشايخ الرواية عند العامة ومن علماء القرن الثالث، ولعل نصف الكتاب يعود إليه، ومن بعده نقل عن

كتاب أبي صالح السليبي الحسائي وهو من علماء القرن الرابع، وبمقدار أقل من كتاب الفتن لأبي يحيى زكريا بن يحيى البرزّاز النيسابوري وهو من أعلام القرن الثالث، أمّا الحقيقة فهو نقل متناثر من مراجع متعددة غالبيتها عامية، وقليل جداً منها تعود إلينا، ولكن المتميّز أن ما نقله من المصادر الشيعية لم يصل إلى عصرنا رغم أن أربعة منها على الأقل تعتبر من الأصول الروائية. ولذلك لا يعدّ الكتاب من المصادر الروائية التي يعتدّ بها فضلاً أن يكون مرجعاً، بلي هو كما أسلفنا يمثل نقلا من النسخ التي توافرت لديه من كتب العامة، وأحسب أن السيد بن طاووس نهج نفس الطريقة التي اعتمدها في بعض كتبه في النقل عن